Journal of Arabian Peninsula Centre
for Educational and Humanity Researches
Volume (1), Issue (7): 31 Dec: 2020
p: 1- 23
Copyright License

ISSN: 2707-742X

مجلة مركـــز جـــزيرة العـــــرب
للبحوث التـــربـــوية والإنسانية
المجلد (1)، العدد (7): 31 ديسمبر 2020م
ص: 1- 23
تاريخ الاستلام: 2020/10/18 القبول: 2020/12/15

منزلةُ أعمالِ الباطنِ في القرآنِ الكريمِ

أ.م. د. سعيد عمر عبود بن دحباج
أستاذ التفسير وعلوم القرآن (المشارك)
كلية التربية || جامعة سيئون|| الجمهورية اليمنية
E: Ssdehbaj2018@gmail.com || phone: 00967777936005

ملخص البحث: هدف هذا البحث إلى بيان مدى احتفاء القرآن الكريم بالباطن الإنساني وعلاقته بتصرفاته الظاهرة، وتأثير كل منهما في الآخر ولتحقيق هدف البحث استخدم الباحث منهجية البحث الوصفي التحليلي الاستقرائي بغية الوصول إلى الأحكام الكلية المتعلقة بالموضوع. وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث؛ تناول الأول: صلاح الباطن والظاهر أهم المقاصد القرآنية، وتضمن الثاني: التلازم بين أعمال الباطن والظاهر وفق الرؤية القرآنية، وتطرق الثالث إلى: أن الاهتمام بأعمال الباطن مقدم على الاهتمام بأعمال الظاهر في القرآن، وقد خلص الباحث إلى عدد من النتائج منها: 1- كثير من المشاريع العلمية والجهود البحثية تتجه في الجملة إلى التعاطي المعرفي مع القضية القرآنية، ولا تخرج عن دائرة الجهد العقلي استقراءً واستنباطًا ومقارنة واستدلالًا ومحاجة مغفلةً المحيطَ الأهم وهو محيط الباطن والروح وانفعالها بالقرآن الكريم.2- القرآن الكريم هو المعين الأول والمسلك الأهم والطريق الأمثل لتحقيق التزكية، وإصلاح الباطن.3- هنالك ميزان قرآني في إعطاء الأمور والأشياء قيمتها وحجمها، ويمكن الوقوف على منزلة أعمال الباطن من خلال النظر في تركيز الطرح القرآني عليه وكثرة تناوله له واستنادا للنتائج قدم الباحث جملة من التوصيات والمقترحات، ومنها الاهتمام بالمقصود الأول من تنزل القرآن وهو هداية البواطن وإصلاحها. إضافة إلى مقترحات بدراسات مكملة في الموضوع.

الكلمات المفتاحية: منزلةُ أعمالِ الباطنِ. التزكية. التربية الروحية. القرآنِ الكريمِ.

The Status of the Immanent Deeds in the Holy Qur'an

Dr. Saeed Omar Abboud Bin Dahbaj
Professor of Interpretation and Sciences of the Qur'an (Participant)
College of Education || Seiyun University
E: Ssdehbaj2018@gmail.com || phone: 00967777936005

Abstract: The research deals with the inner moral life of the human being with a Qur'anic perspective ،and demonstrates the extent of the Holy Qur'an's evaluation of the human immanent and its relationship to his outward behavior. It aims to: 1- highlight the status of the immanent deeds in the Qur'an narrative ،and demonstrate its priority and intentions from the revelation of the Holy Qur'an. 2- Explain the correlation between immanent deeds and apparent deeds ،and the effect of each on the other. 3- Present a number of milestones in the methodology of the Qur'an in implanting and strengthening the praiseworthy immanent deeds ،and getting rid of blameworthy immanent deeds. In order to deal with issues related to research and to achieve the aforementioned aims ،the research is divided into the following: Introduction ،First Topic: the reformation of the immanent and evident is the most important Qur'anic objective ،Second Topic: Correlation between immanent deeds and apparent deeds in accordance with the Qur'anic vision ،Third Topic: Interest in immanent deeds is prior to apparent deeds in the Qur'an ،Findings and recommendations. The researcher concludes with a number of findings and

recommendations ،including: 1- Many scientific projects and research efforts are directed in general to cognitive dealing with the Qur'anic issue and do not deviate from the circle of mental effort ،induction and deduction ،comparison ،inference and argument ،ignoring the most important environment ،which is the inner surroundings and the soul and their impression with the Holy Qur'an. 2- The Holy Qur'an is the first aid ،the most feasible course ،and the best way to achieve praise and reform of the immanent. 3- There is a Qur'anic balance in giving matters and things their value and size and it is possible to determine the status of immanent deed by looking at the focus of the Qur'anic discourse and its frequent handling of it. 4- Attention should be paid to the first objective of the revelation of the Qur'an ،which is the guidance and reformation of the immanent.

Key words: The status of subcontractors. Testimonial. Spiritual education. The Holy Quran.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ليصلح به حياة الأفراد والجماعات، وليكون حبل النجاة من الفتن والأهواء المضلة والشبهات والشهوات المزلة، والصلاة والسلام على من بعثه ربه على حين فترة من الرسل، ليقيم ما اعوج، وينير ما أظلم، ويبين ما اشتبه، وعلى آله وصحابته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن كتاب الله أصل الملة، ومادة الشرعة، وقد جاء لأمرين لا ينفك أحدهما عن الآخر:

- **الأول:** هداية النفوس والقلوب إلى علام الغيوب، وحملها على لزوم جميل الخصال والتخلق بها، والتحقق بمعاني ومقتضيات العبودية لله سبحانه، وهو ما يمكن تسميته بأعمال الباطن.
- **والثاني:** تنظيم الحياة في مختلف جوانبها بتشريع الأحكام، وبيان الأصول الشرعية التي يجب مراعاتها، والانقياد لها في العبادة والسلوك والتعامل وهو ما يمكن تسميته بأعمال الظاهر.

والقرآن الكريم وإن كان يستهدف الأمرين معًا؛ إلا أن للأول منهما أولوية لا تخفى على كل من له أدنى تأمل في آيات الكتاب العزيز. ولما كان الأمر كذلك؛ فقد جاء هذا البحث الموسوم بـ **(منزلةُ أعمالِ الباطنِ في القرآنِ الكريمِ)** ليقف على جملة قضايا متعلقة باعتناء القرآن الكريم بأعمال الباطن، وكيفية تناوله لها، ومنهجيته في بيانها ومن ثم في غرس الحسن منها وتزكية النفوس بها وتعزيزها، والتخليص والتصفية من المذموم منها.

إن المرحلة التي نمر بها من عمر الزمن قد طغت فيها العوامل المؤثرة سلبا على حياة القلوب ونقائها، وقد أسهمت وسائل الإعلام بمختلف أنواعها ووسائل التواصل الاجتماعي بما ملئت بها من بضاعة مزجاة في تعميق هذا الداء العضال، وصارت القلوب التي هي محط نظر الله – تعالى – في حال من الخواء الروحي يرثى له ويندى له الجبين، يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم-: "إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى صورِكُم وأموالِكُم، ولَكِن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم"(رواه مسلم. وإن الإسلام جعل صلاح هذه القلوب وشفاءها ويقظتها في العكوف على مدارسة القرآن وتدبره، يقول تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والقرآن بين أيدينا ولكن القليل من هو مقبل عليه وأقل من ذلك من هو متدبر له، فكيف تحيا قلوبنا وهي لا تستمد الحياة من مصدر الحياة ومنبع النور؟، وكيف نقضي على الداء ونحن نُعرض عن الدواء؟ والعجب أن دواءنا معنا ودواؤنا يكاد يقضي علينا:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ *** والماء فوق ظهورها محمول

فلنبدأ من هنا ولننزع من قلوبنا كل ما علق بها من فساد فإذا صلحت صلح كل شيء، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام: "ألا وإن في الجسدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ صلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدَتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ". رواه البخاري.

أهمية دراسة الموضوع:

تتجلى أهمية الموضوع في كون أعمال الباطن هي الأصل لأعمال الظاهر؛ فأساس ما يظهر من عمل وسلوك إنما مرده لباطن تخلقت به النفس وانصبغت به الروح؛ لذا كان لا بد من تلمس ملامح المنهج القرآني في طرق هذا الجانب تناوله.

وتتأكد أهمية تناول هذا الموضوع في هذه المرحلة من عمر الزمن الذي فرضت فيه المادية بكثافتها اهتمامًا مبالغًا فيه بالظواهر والمحسوسات على حساب الحياة المعنوية والباطنة للإنسان، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (الروم: 7)، وقد شكل هذا انحرافًا كبيرًا وانسلاخًا عن إنسانية الإنسان عمومًا، وعن معالم الربانية في حياة المسلم على وجوه الخصوص، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: 79).

إن المتأمل لكثرة المشاريع العلمية والجهود البحثية- أكاديمية أو غيرها- التي تعنى بالقرآن الكريم يجدها تتجه في الجملة إلى التعاطي المعرفي مع القضية القرآنية، ولا تخرج عن دائرة الجهد العقلي استقراءً واستنباطًا ومقارنة واستدلالًا ومحاجَّة مغفلةً المحيطَ الأهمَّ الذي يعمل فيه الخطاب القرآني وتتجلى هيمنته واستحواذه عليه وتأثيره فيه؛ ألا وهو محيط الروح وانفعالها بالقرآن الكريم واستلهام هداها من هداه، وهدوءها وطمأنينتها وسكينتها من معينه وفيضه، وفاعليتها في عالم الشهود من توهجها وتألقها في عالم الغيب؛ لذا كان لا بد من التفاتة ووقفة جادة ومسئولة وموضوعية تجدد ما انمحى من معالم هذا النوع من الدراسة والفقه القرآني وتعيد إليه ألقه وبريقه، وعلى النحو الآتي.

أسئلة البحث:

يمكن تحديد مشكلة البحث في الأسئلة الآتية:

1. ما منزلة أعمال الباطن في الطرح القرآني، وما مكانتها وأولويتها ومقصوديتها في القرآن الكريم؟.
2. ما أوجه التلازم بين كل من أعمال الباطن وأعمال الظاهر، وتأثير كل منهما في الآخر؟.
3. ما أبرز معالم منهجية القرآن في غرس وتعزيز أعمال الباطن المحمودة، والتخليص من أعمال الباطن المذمومة؟.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الإجابة عن الأسئلة ضمن مشكلة البحث بحيث يضع الحلول والعلاجات الناجعة لها، وهي:

1. إبراز منزلة أعمال الباطن في الطرح القرآني، وتجلية أولويتها ومقصوديتها من تنزل القرآن الكريم.
2. بيان وجه التلازم بين كل من أعمال الباطن وأعمال الظاهر، وتأثير كل منهما في الآخر.
3. الوقوف على جملة معالم في منهجية القرآن في غرس وتعزيز أعمال الباطن المحمودة، والتخليص من أعمال الباطن المذمومة.

أهمية البحث:

وإن مما يرجى الوصول إليه من الفوائد من وراء هذا البحث ما يلي:

1. قد تفيد نتائج الدراسة في لفت نظر الدعاة والمربين إلى بذل المزيد من الجهود والتركيز على أعمال الباطن باعتبارها أهم من أعمال الظاهر.

2. يتوقع الباحث أن تفيد الدراسة الجهات المسؤولة في وزارات التربية والتعليم في تضمين موضوعات فقه الباطن وسبل إصلاحه إلى جانب الموضوعات التي تركز على أعمال الظاهر، واستحضار ذلك عند وضع الأهداف التربوية للعملية التربوية والتعليمية.
3. يؤمل الباحث أن تفيد في زيادة وعي القراء بشمولية المنهج الإسلامي في النظرة للإنسان، وتأكيده على تعزيز الرقابة الذاتية والتحكم في النفس وتنمية وازع الضمير باعتباره المنهج الأسلم في التربية والتوازن النفسي؛ خصوصا في زمان التقنيات الحديثة؛ حيث تنفتح أبواب الفتن مع سهولة الوصول إليها؛ وبات إصلاح الباطن هو المعول عليه في تحصين مجتمعاتنا الإسلامية من الزيغ والانحطاط.
4. يتوقع الباحث أن يسهم البحث في فتح آفاق جديدة لمزيد من الدراسات حول أعمال الباطن وتأثيراتها المهمة على سلوكيات المسلم والتحكم في تصرفاته.

مصطلحات البحث:

قبل خوض غمار بحث (منزلة أعمال الباطن في القرآن الكريم) يلزمنا الوقوف على المراد من لفظ (منزلة)، و(أعمال الباطن)؛ إذ عليهما مدار البحث.

- **أما لفظ (منزلة)** فإن مادتها المعجمية تأتي بمعنى الرتبة والدرجة، يقال فلان ذو منزلة عند الملك أي: ذو رتبة ومرتبة، ويقال: هذه مرتبة عالية ويراد درجة عالية، كما تأتي (المنزلة) بمعنى المرحلة التي تقع بين المنزلين، ومآل هذين المعنيين عند التأمل لمعنى واحد.
- **وأما (أعمال الباطن)** فإن المراد بها ما تنطوي عليه القلوب والنفوس من الأخلاق والخصال، وتتخلق وتتكيف به، سواء أكان من قبيل المحمود: كالورع والرجاء والتوكل... الخ أو المذموم: كالهلع والحسد والنفاق... الخ.

منهج البحث:

سلك الباحث في إعداد هذه الوريقات البحثية منهج البحث الوصفي التحليلي، كما وظف منهج الاستقراء والتتبع للوصول إلى أحكام كلية أو أغلبية تتعلق ببحثه.

الدراسات السابقة:

غير خاف احتفاء أهل العلم بالأعمال القلبية الباطنة في جميع مراحل تاريخ الأمة وعطائها العلمي، وكيف لا يكون ذلك والدين في حقيقته مبادئ وقيم وتعاليم باطنة تنعكس على ظاهر الإنسانية وتصرفاته المادية المحسوسة؟ وهذا الموضوع أكثر ما يطرق في باب الرقائق والسلوك ولدى من يتكلم في التصوف، وكلٌّ له سبيله ورؤيته في تناول هذا الموضوع، وسنعرض في الآتي لجملة من الكتابات حوله سواء من قبيل الدراسات المعاصرة أو المصادر القديمة:

1 – (حديث القرآن عن القلوب ومنهجه في إصلاحها)، وهي رسالة تقدم بها الباحث: عادل بن سعد الجهني، لنيل درجة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وَبَيِّنٌ أن وجهة هذا البحث وصف لحديث القرآن عن القلوب ودراسة لمنهجه في إصلاحها.

2 - (عبودية القلب في القرآن الكريم) وهي أطروحة، تقدم بها الباحث: عبد الرحمن البرادعي، لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم درمان- قسم التفسير وعلوم القرآن، قسمها الباحث إلى تمهيد وثلاثة أبواب، عرف في بدايتها بالقلب، والمراد بعبودية القلوب ولوازمها وأقسامها ومقتضياتها، كما تعرض في ثناياها لأنواع القلوب: الصحيحة والميتة والمريضة.

3 - (أعمال القلوب وأثرها في الإيمان)، وهي أطروحة تقدم بها الباحث: محمد دوكوري محمد، لنيل درجة الدكتوراه، وتركزت حول أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان.

4 - (أعمال القلوب عند ابن القيم)، وهي رسالة تقدمت بها الباحثة: وفاء العزيزي لنيل درجة ماجستير، وقد أفردت لدراسة منهجية ابن القيم في باب أعمال القلوب.

وبالنظر إلى كل هذه الدراسات والجهود البحثية المذكورة – وهي جهود مقدرة لأصحابها - نجد أن كلا منها قد عالج جانبا من فقه القلوب وتزكيتها، في حين أن بحثنا قد تميز بالوقوف مليا على منزلة أعمال القلوب والباطن وفق المنظور القرآني باعتبارها أهم المقاصد القرآنية، والتأكيد على أن الاهتمام بأعمال الباطن مقدم على الاهتمام بأعمال الظاهر في القرآن، ودراسة حقيقة التلازم بين أعمال الباطن والظاهر وفق الرؤية القرآنية.

كما أن هنالك مؤلفات قديمة أصيلة وثيقة الصلة ببحثنا ومنها:

1- إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ)، وهو كتاب مشهور متداول مطبوع كثيرة، وقد عُنِي الغزالي كثيرًا في إحيائه بمعالجة المعاني الباطنة المتوجب استحضارها عند أداء العبادات، كما درس الخصال الباطنة المذمومة المطلوب التخلي عنها، وكتابه طافح بذلك ويعد مرجعا رئيسا في هذا الباب.

2- اعتلال القلوب للخرائطي، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: 327هـ)، وقد طبع بتحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة- الرياض، ووجهة الخرائطي في كتابه تناول العلل الباطنة التي تصيب القلوب، ومن ثم مسالك علاجها.

3- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، المؤلف: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: 386هـ)، وقد طبع بتحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت/ لبنان، الطبعة: الثانية، 1426 هـ- 2005م، وله طبعات غيرها، وكتاب مكي هذا أصل وعمدة لدى أهل السلوك والترقي حيث يبين سبيل معاملة الحق والمقامات الباطنة التي يتحقق بها المريد فمن فوقه في طريق الوصول إلى الله.

4- أمراض القلب وشفاؤها، و5- التحفة العراقية في الأعمال القلبية، وكلاهما لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ).

هذه جملة من الدراسات السابقة والمؤلفات المتعلقة بالبحث الذي نحن بصدده، والذي يميز هذا البحث عن المؤلفات المذكورة وغيرها من الأطروحات في هذا المجال كونه ينطلق من رؤية قرآنية صميمة في معالجة هذه القضية وتناولها، كما أنه يتميز بإفاضته في تقرير العلاقة المتبادلة بين كل من أعمال الباطن وأعمال الظاهر بما يوقف بعد ذلك على معالم تربوية يحتاجها الفرد في تربية نفسه والمربون والمصلحون في تنمية المجتمعات وإصلاحها والنهوض بها.

وإذا تقرر لدينا ما سبق فإن ما يتوجب الوقوف عنده عدة مسائل تتعلق بهذا المعنى من مثل منزلة أعمال الباطن في القرآن الكريم، وهل يوجد تلازم بين أعمال الباطن وأعمال الظاهر؟ وكيف يمكن توصيف العلاقة بينهما؟ أهي علاقة الأصل بالفرع أو الأساس بالبناء أم هي علاقة تأثير متبادلة؟ وأخيرًا: ما الدلائل والشواهد على تقدمة أعمال الباطن على أعمال الظاهر وفق الرؤية القرآنية؟

خطة البحث:

وقد جاء هذا البحث ليعالج هذه الموضوعات، وتكون من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وعلى النحو الآتي:

- **مقدمة:** وتضمنت ما سبق؛ أهمية دراسة الموضوع، أسئلة البحث، وأهدافه، أهميته، الدراسات السابقة، ومنهجية البحث وخطته.
- **المبحث الأول: صلاح الباطن والظاهر أهم المقاصد القرآنية.**
  - **المطلب الأول:** إصلاح البواطن وتزكيتها بالقرآن وظيفة نبوية.
  - **المطلب الثاني:** الباطن وبعض ما يقرب من معناه في القرآن الكريم.
  - **المطلب الثالث:** من أنواع أعمال الباطن في القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني: التلازم بين أعمال الباطن والظاهر وفق الرؤية القرآنية.**
  - **المطلب الأول:** من وجوه ارتباط أعمال الباطن بالظاهر والعكس.
  - **المطلب الثاني:** حتمية تأثر الظاهر بالباطن والعكس.
- **المبحث الثالث: الاهتمام بأعمال الباطن مقدم على الاهتمام بأعمال الظاهر في القرآن.**
  - **المطلب الأول:** أحقية أعمال الباطن بالتقدمة.
  - **المطلب الثاني:** أمراض الباطن وعلاجها بالقرآن الكريم.
- **الخاتمة: خلاصة النتائج والتوصيات.**
- **قائمة المصادر والمراجع.**

المبحث الأول- صلاحُ الباطنِ والظاهرِ أهمُّ المقاصدِ القرآنيةِ.

قد سبقت الإشارة إلى أن القرآن الكريم يستهدف إصلاح الحياة الباطنة والظاهرة لبني الإنسان أفرادًا وجماعات، يقول ابن باديس: «القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لأفراده»[1] وهذا هو الصراط المستقيم الذي يدأب العبد أن يطلب من مولاه الهداية إليه؛ ذلك أنه «أمور باطنة في القلب: من اعتقادات، وإرادات، وغير ذلك، وأمور ظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس، والنكاح والمسكن، والاجتماع والافتراق، والسفر والإقامة، والركوب وغير ذلك»[2]، يقول ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: 16- 19): «وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ الْأَرْبَعَةُ أَصْلَيْ إِصْلَاحِ النَّفْسِ وَإِصْلَاحِ النَّاسِ. وَذَلِكَ جِمَاعُ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ التَّكْلِيفُ مِنَ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ صَلَاحَ النَّفْسِ تَزْكِيَةُ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ فَفِي قِيَامِ اللَّيْلِ إِشَارَةٌ إِلَى تَزْكِيَةِ النَّفس؛ باستجلاب

---

[1]- تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير))، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ- 1995م، ص 143.

[2]- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان الطبعة: السابعة، 1419هـ- 1999م ص 92.

رضى اللَّهِ تَعَالَى وَفِي الِاسْتِغْفَارِ تَزْكِيَةُ الظَّاهِرِ بِالْأَقْوَالِ الطَّيِّبَةِ الْجَالِبَةِ لِمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[3]، واسم الإيمان يشمل صنفي الأعمال المشار إليها؛ الظاهرة منها والباطنة كما هو مذهب جمهور سلف الأمة [4].

المطلب الأول- إصلاح البواطن وتزكيتها بالقرآن وظيفة نبوية

نجد القرآن الكريم حينما يذكر وظائف النبي- ﷺ- التي بعثه الله لأجلها ينص على (التزكية) كإحدى الوظائف المذكورة كما قال الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ﴾ (البقرة: 129)، وقال أيضا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: 164)، وقال جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: 2)، والتزكية ابتداء إنما تكون للبواطن بتخليصها من الخصال المذمومة، وتحليتها بالخصال المحمودة، ولما استقر هذا الأصل عند الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين – رحمهم الله- نرى أن جل فقههم وعلومهم في أعمال الباطن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَكَلَامُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْهَا فِي الْإِجَارَةِ وَالشُّفْعَةِ وَالْحَيْضِ وَالطَّهَارَةِ بِكَثِيرِ كَثِيرٍ» [5].

وبالعودة لتأمل وتدبر الآيات بشأن وظائف النبي- ﷺ- التي أوردناها آنفا نجد أنه جعل (تزكية البواطن) وظيفة النبي الثانية وابتدأ قبلها بذكر تلاوة آيات القرآن عليهم أولا، وسر تقديم تلاوة القرآن الكريم على التزكية أن القرآن الكريم هو المعين الأول والمسلك الأجدى والطريق الأمثل لتحقيق التزكية؛ ولذلك ابتدأ بتلاوته وثنى بالتزكية التي تتحصل من ذلك.

وعطفا على ما تقدم نشير إلى ملحظ مهم وهو أنه يكثر الحديث لدى جملة من الباحثين عن وجوه الإعجاز القرآني وأن الأثر الذي أحدثه الكتاب العزيز من حمل الناس على الدخول في الإسلام والانقياد له إنما يعود إلى إعجازه للأقوام عربًا وعجمًا، ويسندون إلى الإعجاز القرآني وحده هذا الأثر؛ فحينًا كان الإعجاز البياني وفصاحة القرآن وبلاغته هي من أدخلت الناس في دين الله أفواجًا، وحينًا كان الإعجاز التشريعي هو الذي أبهر الآخرين بروعته وإحكامه وتلبيته للحاجة الإنسانية على مستوى القوانين والنظم الحياتية إلى غير ذلك من أوجه الإعجاز التي لا نشك في ثبوتها للقرآن الكريم، ولا يشك عاقل في مدى أهميتها في تعزيز مقتضى التحدي الذي تكلم عنه القرآن في غير ما موضع بما يقيم الحجة على ربانية مصدره وصدق الرسول- ﷺ- الذي جاء مبلغًا إياه. ومن آخر وجوه الإعجاز وليس بآخرها- لأن القرآن بحر لا ساحل له ولا تنقضي عجائبه- الإعجاز العلمي[6].

ومع التسليم- كما ذكرنا- بأهمية أنواع الإعجاز القرآني وأثرها في هداية أقوام ودخولهم في دين الله إلا أن هنالك مأخذًا يغيب عن الكثير أثره وتخفى أهميته ألا وهو ما أسماه بعضهم بأثر القرآن الروحي، وقوة تأثيره ونفوذه في الباطن

---

[3]- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ 348/26.

[4]- مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م 552/7.

[5]- فتاوى ابن تيمية 234/13.

[6]- ينادي البعض بتسمية هذا اللون بالتفسير العلمي للقرآن الكريم باعتبار أن أكثر ما يطرح في مجال الإعجاز لما يصل بعد إلى مستوى القطع واليقين، وما وصل لذلك يعد قليلا أو نادرا، ولأن النادر لا حكم يتوجب إدراجها كلها في مجال التفسير العلمي.

الإنساني، فمع أن لغة القرآن في القمة فصاحة وبلاغة إلا أن حصر التأثير في إسلام من أسلم فيها مغاير تمامًا للحقيقة؛ ذلك أن روحانية القرآن وقوة نفوذه لهما من التأثير ما يفوق تأثير بلاغة القرآن وفصاحته ومختلف وجوه إعجازه.

«والحق أنهما- أي روحانية القرآن وقوة نفوذه- كانتا المؤثرتين في الدرجة الأولى بالإضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وشواهد أعلامها. ويبدو هذا واضحًا في كون فريق الرعيل الأول من المؤمنين في مكة قد آمن في وقت مبكر جدًا، وقبل أن يكون نزل من القرآن جملة كبيرة، فلا يصح أن يشك في أن إيمانهم إنما كان بما نفذ إلى أعماقهم من روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وبما شاهدوه من أعلام النبوة في الدرجة الأولى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الوصف الذي به وصف أثر القرآن في الذين أوتوا العلم في آيات سورتي الإسراء: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [107- 109]، والقصص: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (52- 53) المكيتين لا يصح أن يكون وصف أثر فصاحة القرآن وبلاغته اللغوية فقط بل ولا يصح أن يشك في أنه وصف أثر روحانية القرآن وقوة نفوذه بالإضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وشواهد أعلامها الصادقة في الدرجة الأولى ولا سيما أن المذكورين في الآيات كتابيون ويحتمل أن لا يكونوا عربًا أو ممن يجيدون العربية ويتذوقون بلاغتها بقوة»[7].

المطلب الثاني- الباطن وبعض ما يقرب من معناه في القرآن الكريم

يجيء ذكر الباطن في القرآن الكريم على عدة وجوه وبعدة إطلاقات:

- **أولًا – الصدر و(الصدور):** يشار للباطن في كتاب الله أحيانا باسم الصدر بالإفراد أو الصدور بالجمع، وقد ورد لفظ (صدر) وجمعه، مضافا وغير مضاف في قرابة (46) ستة وأربعين موضعا في كتاب الله، ومن ذلك:

1. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال ابن عاشور: (وَالصَّدْرُ مُرَادٌ بِهِ الْبَاطِنُ، مَجَازًا فِي الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ بِعَلَاقَةِ الْحُلُولِ)[8].
2. قال تعالى: ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾. قال ابن عاشور: «وَالصُّدُورُ مُرَادٌ بِهَا النُّفُوسُ جَمْعُ الصَّدْرِ وَهُوَ الْبَاطِنُ الَّذِي فِيهِ الْحَوَاسُّ الْبَاطِنَةُ وَذَلِكَ كَإِطْلَاقِ الْقَلْبِ على ذَلِك»[9].
3. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، ففي هذه الله وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء لما في الصدور، وهي «مستقر العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء، ونزعات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال»[10].

---

[7]- التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]، المؤلف: دروزة محمد عزت، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة: 1383 هـ 51/1.

[8]- التحرير والتنوير 58/8.

[9]- نفس المصدر 92/28.

[10]- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: 142).

❁ **ثانيا- القلب و(القلوب):** وقد ورد لفظ (قلب) وجمعه، مضافا وغير مضاف في قرابة (136) مائة وستة وثلاثين، موضعًا في كتاب الله، وقد سبق معنا قول ابن عاشور – آنفا-: «وَالصُّدُورُ مُرَادٌ بِهَا النُّفُوسُ جَمْعُ الصَّدْرِ وَهُوَ الْبَاطِنُ الَّذِي فِيهِ الْحَوَاسُّ الْبَاطِنَةُ وَذَلِكَ كَإِطْلَاقِ الْقَلْبِ على ذَلِك»[11]، ومن الشواهد القرآنية الدالة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: 154).

وكثير من المفسرين يجعلون (صدوركم) بمعنى (قلوبكم)[12]، ولكن لابن القيم تقرير لطيف يجمل بنا أن نورده لنتبين علاقة كل من الصدر بالقلب وفق المعهود من لغة القرآن، يقول ابن القيم: «والصدر: هو ساحة القلب وبيته. فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب. فهو بمنزلة الدهليز له. ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود. ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾. فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر. ووسوسته واصلة إلى القلب. ولهذا قال ﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ﴾ ولم يقل «فيه» لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه. فدخل في قلبه.»[13].

وعن ابن عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما- قال: " الابتلاء والتمحيص هما واحد "[14]، ولكن الراغب الأصفهاني في مفرداته يفرق بينهما فيقول: «إن قيل: ما حقيقة الابتلاء والفصل بينه وبين المحص؟ قيل: الابتلاء في الأصل هو الاختبار، الذي يفصل به بين الخير والشر... وأما التمحيص فإزالة ما قد انفصل من الخير عن الشرّ»[15]، ويذهب لمعنى ما قرره الراغب كثير من أهل التفسير، يقول ابن عطية: «الابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره»[16].

يقول الرازي: «وَاعْلَمْ أَنَّ ذَاتَ الصُّدُورِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الْمَوْجُودَةُ فِي الصُّدُورِ، وَهِيَ الْأَسْرَارُ وَالضَّمَائِرُ... وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ ابْتِلَاءَهُ لَمْ يَكُنْ لِأَنَّهُ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فِي الصُّدُورِ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ»[17]، ويقول ابن عاشور: «والصّدور هُنَا بِمَعْنَى الضَّمَائِر... وَأُطْلِقَ الصُّدُورُ عَلَى الضَّمَائِرِ لِأَنَّ الصَّدْرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يُطْلَقُ عَلَى الْإِحْسَاسِ الْبَاطِنِيِّ»[18].

---

[11]- التحرير والتنوير 92/28.

[12]- ينظر: تفسير السمرقندي المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ) (1/ 258).

[13]- تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم)، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى- 1410 هـ (ص: 678).

[14]- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ- 2005 م (2/ 512).

[15]- تفسير الراغب الأصفهاني، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) (3/ 936).

[16]- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى- 1422 هـ (1/ 529)، وينظر: تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ/ 1996م (1/ 285)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى- 1418 هـ (2/ 44).

[17]- مفاتيح الغيب (9/ 397).

[18]- التحرير والتنوير (4/ 139).

يقول طنطاوي في تفسيره: «نزل بكم ما نزل من الشدائد في أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن، وليعاملكم- سبحانه- معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر، حتى يتبين الخبيث من الطيب وليخلص ما في قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة- فإن القلوب يخالطها بحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة وحب الشهوات. ما يضاد ما أودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى. فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص من الآثام فاقتضت حكمة الله- ﷻ- أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له داء»[19].

❁ ثالثا – الفؤاد و(الأفئدة): وقد ورد لفظ (فؤاد) وجمعه، مضافا وغير مضاف في قرابة (16) ستة عشر موضعا في كتاب الله، ومن ذلك:

قوله ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: 110). والتقليب والقلب واحد وهو تحويلك الشيء عن وجهه[20]، وقد جاء من دعاء النبي قوله ﷺ: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"[21]. يقول الرازي: «وَمَعْنَى تَقْلِيبِ الْأَفْئِدَةِ وَالْأَبْصَارِ: هُوَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْآيَاتُ الْقَاهِرَةُ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا وَعَرَفُوا كَيْفِيَّةَ دَلَالَتِهَا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَلَّبَ قُلُوبَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ بقوا عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِتِلْكَ الْآيَاتِ»[22].

ولربما قال قائل: لم قدم الأفئدة على الأبصار؟ ويجيب الرازي عن ذلك فيقول: «وَإِنَّمَا قَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَ تَقْلِيبِ الْأَفْئِدَةِ عَلَى تَقْلِيبِ الْأَبْصَارِ لِأَنَّ مَوْضِعَ الدَّوَاعِي وَالصَّوَارِفِ هُوَ الْقَلْبُ. فَإِذَا حَصَلَتِ الدَّاعِيَةُ فِي الْقَلْبِ انْصَرَفَ الْبَصَرُ إِلَيْهِ شَاءَ أَمْ أَبَى وَإِذَا حَصَلَتِ الصَّوَارِفُ فِي الْقَلْبِ انْصَرَفَ الْبَصَرُ عَنْهُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ يُبْصِرُهُ فِي الظَّاهِرِ. إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِيرُ ذَلِكَ الْإِبْصَارُ سَبَبًا لِلْوُقُوفِ عَلَى الْفَوَائِدِ الْمَطْلُوبَةِ. وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، فَلَمَّا كَانَ الْمَعْدِنُ هُوَ الْقَلْبَ وَأَمَّا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ فَهُمَا آلَتَانِ لِلْقَلْبِ كَانَا لَا مَحَالَةَ تَابِعَيْنِ لِأَحْوَالِ الْقَلْبِ. فَلِهَذَا السَّبَبِ وَقَعَ الِابْتِدَاءُ بِذِكْرِ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ تَقْلِيبِ الْبَصَرِ»[23]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: 24].

❁ رابعا- النفس و(النفوس، والأنفس): وقد ورد لفظ (نفس) وجمعه، مضافا وغير مضاف في قرابة (310) عشرة مواضع، وثلاثمائة موضعا في كتاب الله، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116]. قال الطبري في تفسيرها: «يقول: إنك، يا رب، لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما قد نطقتُ

---

[19]- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى (2/ 307).

[20]- ينظر: مفاتيح الغيب (13/ 114).

[21]- أخرجه الترمذي في سننه (سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م 16/4)

[22]- مفاتيح الغيب(13/ 115).

[23]- نفس المصدر (13/ 114)

به وأظهرته بجوارحي؟ يقول: لو كنت قد قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله"، كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما قد نطقت به؟»[24].

وإذا كان مما يقرب من معنى الباطن (القلب) أو يكاد يكون هو فإن معاني الأنفس في كتاب الله تعالى القلوب، وذلك مثل «قوله في [سورة النَّجم: 23]: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس﴾ يعني القلوب. وقال في [يوسف: 53]: ﴿وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي﴾ يعني قلبي ﴿إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ﴾ للجسد {بالسوء} يعني بقوله: ﴿إِنَّ النفس﴾ إِنَّ القلب. وقال في (ق: 16): ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني قلبه. وقال في [الإسراء: 25]: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ يعني بما في قلوبكم، ونحوه كثير»[25].

المطلب الثالث- من أنواع أعمال الباطن في القرآن الكريم

تعددت وتنوعت أعمال الباطن المحمودة، والمذمومة التي جاء القرآن بذكرها ومن بين أعمال الباطن المحمودة على سبيل المثال لا الحصر [26]:

1. توحيد الله، وإخلاص الدّين له.
2. التوكل على الله.
3. محبَّة الله وَرَسُوله وأن يكون الله وَرَسُوله أحب إليه مِمَّا سواهُمَا.
5- الرجاء لرحمة الله.
6- الخشية من عَذَابه.
7- الصَّبْر لحكم الله.
8- التَّسْلِيم لأمر الله.
9- الانشراح بالإيمان بالله.

ومن بين أعمال الباطن المذمومة المذكورة في القرآن الكريم[27]:

(1) الضيق.
(2) النفاق.
(3) المرض.
(4) الحسد.
(5) الكبر.
(6) الزيغ.
(7) الرجس.
(8) الرياء.

---

[24]- جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ- 2000 م 238/11.

[25]- التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، المؤلف: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (المتوفى: 200هـ)، قدمت له وحققته: هند شلبي، الناشر: الشركة التونسية للتوزيع، عام النشر: 1979 م ص 278.

[26]- ينظر: مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري، لمؤلفه سعيد حوى، طبعة دار السلام، القاهرة ط4 1419هـ 1999م ص 4 .

[27]- ينظر: المصدر السابق.

(9) الغل.

إن كثرة تناول الطرح القرآني للأعمال الباطنة بشقيها المذكورة وغير المذكورة يسوقنا للإشارة إلى ما يمكن تسميته بالميزان القرآني في إعطاء الأمور والأشياء قيمتها وحجمها، ويمكن الوقوف على منزلة أعمال الباطن من خلال النظر في تركيز الطرح القرآني عليه وكثرة تناوله له في مواضع يصعب حصرها بالعد، ويصفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «أَعمال الْقُلُوب الَّتِي تسمى المقامات وَالْأَحْوَال وَهِي من أصُول الإيمان وقواعد الدّين مثل محبَّة الله وَرَسُوله والتوكل على الله..» [28].

❁ الاهتمام بالأعمال الباطنة واجب على كل مسلم:

جرت عادة القرآن حينما يذكر أعمال الباطن المحمودة نادبا وداعيا إليها أن يوجه نداءه لعموم الناس وعموم المسلمين والمؤمنين؛ وذلك ليؤكد أن هذا من الواجبات العامة ومن فروض الأعيان المطالب بها كل أحد بخصوصه لا يستثنى من ذلك أحد.

وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله قول من يرى بأن ما ذكر من أعمال الباطن إنما هي من شأن الخاصة ولا تجب في حق العامة حين قال: «وَطَائِفَةٌ تَظُنُّ أَنَّ التَّوَكُّلَ إنَّمَا هُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الْخَاصَّةِ الْمُتَقَرِّبِينَ إلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ، كَذَلِكَ قَوْلُهُمْ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَتَوَابِعِهَا كَالْحُبِّ، وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَالشُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا ضَلَالٌ مُبِينٌ، بَلْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ فُرُوضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِيمان، وَمَنْ تَرَكَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فَهُوَ إمَّا كَافِرٌ وَإِمَّا مُنَافِقٌ، لَكِنَّ النَّاسَ هُمْ فِيهَا كَمَا هُمْ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ، وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ طَافِحَةٌ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ عِلْمًا وَعَمَلًا بِأَقَلَّ لَوْمًا مِنْ التَّارِكِينَ لِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ مَعَ تَلَبُّسِهِمْ بِبَعْضِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، بَلْ اسْتِحْقَاقُ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ يَتَوَجَّهُ إلَى مَنْ تَرَكَ الْمَأْمُورَ مِنْ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، إنْ كَانَتْ الْأُمُورُ الْبَاطِنَةُ مُبْتَدَأَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ وَأُصُولَهَا، وَالْأُمُورُ الظَّاهِرَةُ كَمَالَهَا وَفُرُوعَهَا الَّتِي لَا تَتِمُّ إلَّا بِهَا» [29]، وقال في موضع آخر مؤكدًا وجوبها في حق جميع الناس: «هَذِهِ الْأَعْمَال جَمِيعهَا وَاجِبَة على جَمِيع الْخلق المأمورين فِي الأَصْل بِاتِّفَاق أَئِمَّة الدّين وَالنَّاس فِي هَذَا على ثَلَاث دَرَجَات كَمَا هم فِي أَعمال الْأَبدَان على ثَلَاث دَرَجَات ظَالِم لنَفسِهِ ومقتصد وسابق بالخيرات» [30].

بناء على ما سبق فإنه ينبغي أن يعلم أن للإنسان عدواً ظاهراً وهم من يعادونه من شياطين وكفرة وفجرة الإنس، وعدوا باطنا وهم من يضله ويغويه ويزين له الشر من شياطين ومردة الجن، وإذا كانت مجالدة العدو الظاهر الصائل واجبة فإن محاربة العدو الباطن أوجب، فيتأكد على كل أحد أن يقف على ثغرة الباطن ولا ينهزم في ساحتها فإن «من قتله العدو البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجورًا، ومن قهره العدو

---

[28]- يظهر جليًا من كلام ابن تيمية – رحمه الله – احتفاؤه بمصطلحات كالمقامات والأحوال، وهي مصطلحات لأرباب السلوك والتصوف بالاعتبار الأول؛ إذ يكثر دوران هذين اللفظين في كلام المتصوفة وأرباب السلوك والطريق ومن يتكلم ويكتب في هذا الباب، وهذا ملمح لا بد أن يتنبه له من يشتغل بإرث ابن تيمية، وبتأمل هذا الملمح واستحضاره تخف حدة الصدام والصراع بين تيارين كل منهما ينظر للآخر بتوجس وريبة.

[29] - الفتاوى الكبرى لابن تيمية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1408هـ- 1987م 111/1.

[30]- التحفة العراقية في الأعمال القلبية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ، المطبعة السلفية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1399هـ ص27.

الباطن كان مفتونا أو موزورًا»[31]، ولن يتأتى له ذلك ويتحصل إلا باللجوء إلى الله ﷻ فإنه «لما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان»[32]، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾ [الإسراء: 65]، فبتمثل حقائق العبودية لله في الباطن يتحصل دفع الشيطان الرجيم ودحره وكف أذاه.

المبحث الثاني- التلازم بين أعمال الباطن والظاهر وفق الرؤية القرآنية

مما يجب تقريره أن تلازمًا وارتباطًا لا بد منه بين أعمال الباطن والظاهر، ووجود تأثير متبادل بينهما، ويمكن وصف هذه العلاقة بينهما بالتناسب الطردي، وهذا ما سنناقشه في هذا المبحث.

المطلب الأول- من وجوه ارتباط أعمال الباطن بالظاهر والعكس

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورا وأحوالا»[33]، ولذلك نجد من عادة الشارع أن يطلب من العبد تطهير باطنه وظاهره، فمن نظر إلى الصلاة – مثلا – وهي ركن الدين الأعظم وعموده وجد الشارع يطلب من العبد تطهير ظاهره بالماء، كما يطلب منه تطهير باطنه بتخليص القلب من النظر إلى غير الله وتفريغه من كل ما يشغله عن ذكره والخشوع عند مناجاته لمولاه في صلاته، يقول ابن عاشور: «وَالْحِكْمَةُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْغُسْلِ النَّظَافَةُ، وَنِيطَ ذَلِكَ بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ الْمُصَلِّي فِي حَالَةِ كَمَالِ الْجَسَدِ، كَمَا كَانَ حِينَئِذٍ فِي حَالِ كَمَالِ الْبَاطِنِ بِالْمُنَاجَاةِ وَالْخُضُوعِ»[34]؛ وذلك حتى تكون «حقائق الإيمان الباطنة في القلوب موافقة لشرائع الإسلام الظاهرة على الأبدان»[35].

ويستطرد ابن عاشور بقوله: (وَعَلَامَةُ الْبَاطِنِ تَكُونُ فِي تَصَرُّفَاتِ الْمَرْءِ، فَالَّذِي يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَلَا يَكُونُ صَاحِبَ ضَمِيرٍ طَيِّبٍ لَا يُصْغِي إِلَى دَعْوَةِ الْحَقِّ إِذَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ وَيُظْهِرُ عَلَيْهِ الِاعْتِزَازَ بِالظُّلْمِ لَا يَرْعَوِي عَنْ غَيِّهِ وَلَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ الذَّمِيمَةَ)[36].

وتشهد لهذا المعنى وجوه كثيرة وردت بها النصوص الكثيرة في كتاب الله تعالى ومن ذلك:

❁ أولاً- عمارة المساجد جديرة بمن عمر قلبه بالإيمان بالله وخشيته:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، يقول سيد قطب: «إن العبادة تعبير عن العقيدة فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشيء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح، وبالعمل الواقع الصريح، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على

---

[31]- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ- 1999 م 114/1.

[32]- تفسير ابن كثير 114/1.

[33] - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان الطبعة: السابعة، 1419هـ- 1999م 92/1.

[34]- التحرير والتنوير 65/5.

[35]- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 159/1.

[36]- التحرير والتنوير274/2.

السواء»[37]، ويقول أيضا معلقا على آية عمران المساجد آنفة الذكر: «والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطي الإيمان الباطن والعمل الظاهر، لا يجيء نافلة. فلا بد من التجرد لله ولا بد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوكِ، وخشيةُ أحد غير الله لون من الشرك الخفي ينبه إليه النص قصداً في هذا الموضع ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله.. فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح، ثم يكافئ الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح»[38].

❁ ثانيًا- حتمية ظهور آثار صلاح الباطن على الظاهر:

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: 47- 50] يقول سيد قطب عند تفسير هذه الآيات: «إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك. والإسلام عقيدة متحركة، لا تطيق السلبية. فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع. ومنهج الإسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون. مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل»[39].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فَأَصْلُ الْإِيمان فِي الْقَلْبِ وَهُوَ قَوْلُ الْقَلْبِ وَعَمَلُهُ وَهُوَ إقْرَارٌ بِالتَّصْدِيقِ وَالْحُبِّ وَالِانْقِيَادِ وَمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ مُوجِبُهُ وَمُقْتَضَاهُ عَلَى الْجَوَارِحِ وَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ دَلَّ عَلَى عَدَمِهِ أَوْ ضَعْفِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ مِنْ مُوجِبِ إيمان الْقَلْبِ وَمُقْتَضَاهُ وَهِيَ تَصْدِيقٌ لِمَا فِي الْقَلْبِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ وَشَاهِدٌ لَهُ»[40].

❁ ثالثًا- انتصار المؤمنين في المعركة المادية الظاهرة مسبوق بانتصارهم على أنفسهم في البواطن:

قال الله تعالى في شأن السحرة الذي استعلوا بالإيمان وانتصروا بثباتهم على الحق الذي ملك عليهم أفئدتهم واستقر في بواطنهم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: 72- 75]، يقول سيد قطب معلقا على هذا المشهد: «فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية... وهذا هو الذي كان في موقف موسى- عليه السلام- من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه»[41].

---

[37]- في ظلال القرآن، تأليف سيد قطب، دار الشروق، الطبعة (34) عام 1425هـ- 2004م 1614/3.

[38]- نفس المصدر.

[39]- في ظلال القرآن 2525/4.

[40]- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 644/7.

[41]- في ظلال القرآن 2344/4.

۞ رابعًا- مخالفة الظاهر مع ادعاء الإيمان وصلاح الباطن يعني النفاق:

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا. ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ. وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمِ ارْتابُوا؟ أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ؟ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.(النور: 47-50).

يقول سيد قطب معلقا على هذا النص القرآني: «هؤلاء كانوا يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا﴾.. يقولونها بأفواههم، ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم. فيتولون ناكصين يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان: ﴿وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم. والإيمان ليس لعبة يتلهى بها صاحبها ثم يدعها ويمضي. إنما هو تكيف في النفس، وانطباع في القلب، وعمل في الواقع، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير»[42].

ويخبر الله عن شأن المنافقين وأنهم يُظْهِرون للمؤمنين الإيمان والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال الله ﷻ:﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله ﷻ:﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَملٌ دينه، ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ويخبر الله ﷻ في موضع آخر أن مسارعة المنافقين الظاهرة للعيان وهرولتهم في موالاة أهل الكفر إنما سببها مرض قلوبهم وبواطنهم كما قال الله سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾(المائدة: 52)، يقول الشنقيطي: «ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، يَعْتَذِرُونَ عَنْ مُوَالَاةِ الْكَفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ تَدُورَ عَلَيْهِمُ الدَّوَائِرُ، أَيْ دُوَلُ الدَّهْرِ الدَّائِرَةُ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ»[43].

۞ خامسًا- حسن الباطن والظاهر محمود في الدنيا والآخرة:

ويشهد لهذا المعنى ما وصف الله به نساء المؤمنين من الحور في الجنة، وذلك حينما وصف أعينهن فقال في حقهن: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾(الصفات: 48) فجمع لهن جمال الباطن وحسنه بغضهن أطرافهن وقصرها على أزواجهن مع حسن الأعين بقوله: (عِينٌ) أو واسعات الأعين حسانهن.

وهذه زليخا جمعت ليوسف وهي تصفه للنسوة بين جمال الظاهر والباطن حيث تقول: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32] أي: هو مع هذا الجمال الظاهر له فإنه عفيف تقي نقي، وهذا هو جمال الباطن «فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن»[44].

إن الشاهد الأول في شأن حور الجنة ونسائها أخروي، وإن شاهد قصة يوسف دنيوي، وكلاهما يؤكدان مطلوبية ومحمودية صلاح الباطن والظاهر على وجه السواء.

---

[42] في ظلال القرآن 2525/4.

[43]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: 1415 هـ- 1995 م 413/1.

[44]- تفسير ابن كثير 14/7.

المطلب الثاني- حتمية تأثر الظاهر بالباطن والعكس

من الحقائق التي جاء القرآن الكريم بتقريرها حتمية تأثر الظاهر بالباطن، وتأثر الباطن بالظاهر من كل، وهذه الحقيقة فضلا عن كونها قاعدة قرآنية فإنها حقيقة وجودية يلمسها المرء من نفسه، ومن الشواهد القرآنية الدالة على هذا المعنى ما يلي:

1- قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(التوبة: 77)، فلما حصل الإخلاف منهم في الظاهر أنتج ذلك مرض الباطن المتمثل في نفاق القلب والعياذ بالله.

2- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾، (النساء: 142). فالنفاق والمخادعة لله ظهرت ضرورة على الجوارح تكاسلا عن طاعة الله وعبادته.

3- وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾، (الفتح: 18). فلما علم الله ما في قلوب أهل بيعة الرضوان من الإيمان والخير والمحبة لله ولرسوله ولنصرة دينه جازاهم برضاه عنهم، وإنزال السكينة عليهم ثم أتم لهم المجازاة بالفتح الظاهر المظفر، وليس ذلك فحسب بل قال الله في السياق بعدها: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: 19- 21].

4- ولما ضرب الكفار على المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصار العسكري العظيم المذكور في قوله ﷻ: ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (الأحزاب: 10). أظهر المؤمنون تسليمهم لموعود الله ورسوله وصدق ما جاءا به، وجرت بذلك ألسنتهم كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فأثمر كل ذلك صلاحا وزيادة إيمان في الباطن ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾، فكان نتيجة ذلك التسليم الظاهر والباطن ما ذكره الله بقوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (25) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الفتح: 25- 27].

5- ما يتمناه القلب في الباطن ينعكس على الظاهر: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 32]، وفي هذه الآية ينهى الله وينعى على من يتمنى ما فضل به غيره عليه، وكان في الآيات قبلها قد نهاهم عن أكل المال بالباطل، وعن قتل الأنفس، وكان ما نهى عنه مدعاة إلى التبسط في الدنيا والعلو فيها وتحصيل حطامها فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 29- 31]، والمناسبة بين الآيات أن التمني لذلك سبب مؤثر في تحصيل الدنيا وشوق النفس إليها بكل طريق، فلم يكتف بالنهي عن تحصيل المال بالباطل وقتل الأنفس، حتى نهى عن السبب المحرّض على ذلك، وكانت المبادرة

إلى النهي عن المسبب آكد لفظاعته ومشقته فبدىء به، ثم أتبع بالنهي عن السبب حسماً لمادة المسبب، وليوافق العمل القلبي العمل الخارجي فيستوي الباطن والظاهر في الامتناع عن الأفعال القبيحة[45].

6- كما يعرب عن هذا المعنى الذي نقرره قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 155] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]، وقوله: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: 127]، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

المبحث الثالث- الاهتمام بأعمال الباطن مقدم على أعمال الظاهر في القرآن

المطلب الأول- أحقية أعمال الباطن بالتقدمة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصل الدّين فِي الْحَقِيقَة هُوَ الْأُمُور الْبَاطِنَة من الْعُلُوم والأعمال وَأَن الْأَعْمَال الظَّاهِرَة لَا تَنْفَع بِدُونِهَا» [46]، ويقول ابن باديس في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)﴾ [يونس: 57]: «وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو مستقر العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء، ونزعات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال» [47].

لما وضع الإمام ابن حجر الهيتمي كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) بدأ بالكبائر الباطنة وعلل صنيعه ذلك فقال: «وَقَدَّمْتُهَا لِأَنَّهَا أَخْطَرُ، وَمُرْتَكِبَهَا أَذَلُّ الْعُصَاةِ وَأَحْقَرُ، وَلِأَنَّ مُعْظَمَهَا أَعَمُّ وُقُوعًا وَأَسْهَلُ ارْتِكَابًا وَأَمَرُّ يَنْبُوعًا فَقَلَّمَا يَنْفَكُّ إنْسَانٌ عَنْ بَعْضِهَا لِلتَّهَاوُنِ فِي أَدَاءِ فَرْضِهَا، فَلِذَلِكَ كَانَتْ الْعِنَايَةُ بِهَذَا الْقِسْمِ أَوْلَى وَكَانَ صَرْفُ عِنَانِ الْفِكْرِ إلَى تَلْخِيصِهِ وَتَحْرِيرِهِ أَحَقَّ وَأَحْرَى. وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: كَبَائِرُ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ كَبَائِرِ الْجَوَارِحِ لِأَنَّهَا كُلَّهَا تُوجِبُ الْفِسْقَ وَالظُّلْمَ، وَتَزِيدُ كَبَائِرُ الْقُلُوبِ بِأَنَّهَا تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ وَتُوَالِي شَدَائِدَ الْعُقُوبَاتِ. وَلَمَّا ذَكَرَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ الْكَبَائِرَ الْبَاطِنَةَ وَأَوْصَلَهَا إلَى أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ قَالَ: وَالذَّمُّ عَلَى هَذِهِ الْكَبَائِرِ أَعْظَمُ مِنْ الذَّمِّ عَلَى الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَالْقَتْلِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ لِعِظَمِ مَفْسَدَتِهَا وَسُوءِ أَثَرِهَا وَدَوَامِهِ، فَإِنَّ آثَارَهَا تَدُومُ بِحَيْثُ تَصِيرُ حَالًا لِلشَّخْصِ وَهَيْئَةً رَاسِخَةً فِي قَلْبِهِ بِخِلَافِ آثَارِ مَعَاصِي الْجَوَارِحِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ بِمُجَرَّدِ الْإِقْلَاعِ مَعَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: 114]» [48].

ومما يؤكد أحقية أعمال الباطن بالتقدمة والاهتمام ما يلي:

---

[45]- ينظر: البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ 616/3.

[46]- أمراض القلوب وشفاؤها لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)، المطبعة السلفية – القاهرة، الطبعة: الثانية، 1399هـ ص42.

[47]- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص: 142).

[48]- الزواجر عن اقتراف الكبائر، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: 974هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، 1407هـ- 1987م 43/1.

1. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2- 4].

فبالنظر إلى هذا من كتاب الله الذي جاء مبينا حقيقة المؤمنين وصفاتهم التي أهلتهم لوصفهم بـ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وجعلتهم أهلا لموعود الله وفضله الوارد في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ نجد أنه أورد في مدحهم خمس صفات هي: 1 – ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، 2 – ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانا﴾، 3 – ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، 4 – ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، 5 – ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. ولو أمعنا النظر في هذه الصفات الخمس لوجدنا أن الثلاث الأول منها إنما هي من قبيل الأعمال الباطنة، ولاحظنا كذلك أنه بدأ بذكر هذه الخصال من أعمال الباطن وقدمها على خصلتين هما من قبيل أعمال الظاهر هما: إقام الصلاة والإنفاق وإخراج زكاة الأموال. هذا مع ملاحظة أن الخصلتين الأخيرتين (إقام الصلاة، والزكاة) هما في حقيقة الأمر ركنان من أركان الإسلام كما لا يخفى، ومع ذلك قدم عليهما في الذكر ثلاثة من أعمال الباطن وللكثرة هنا دلالة ومعنى تؤكد – كما أشرنا – أن الأولوية وما له حق التقدمة والاهتمام الأكثر إنما هو أعمال الباطن، مع التزام القيام والإتيان بأعمال الظاهر سواء من قبيل الفرائض أو النوافل.
2. وَقَال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]، والملاحظ هنا أيضا أنه ذكر ثلاث صفات: أ- الإيمان بالله ورسوله، ب– انتفاء الريب والشك عنهم، ج – الجهاد بالأموال والأنفس، فالأوليان خصلتان باطنتان هما مقدمتان في الذكر، والخصلة الثالثة هي الجهاد في سبيل بالمال والنفس، وقد ذكرها آخرا.
3. وَقَالﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: 62]، وهنا بدأ بذكر الإيمان به وبرسوله، ثم ذكر ما يثمره في الظاهر من الكون مع رسول الله في الأمر الجامع وعدم الانصراف إلا بإذنه.
4. المفرطون في ترك الأعمال المحمودة باطنها أو ظاهرها لهم نصيبهم من الذم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ عِلْمًا وَعَمَلًا بِأَقَلَّ لَوْمًا مِنْ التَّارِكِينَ لِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ مَعَ تَلَبُّسِهِمْ بِبَعْضِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلْ اسْتِحْقَاقُ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ يَتَوَجَّهُ إلَى مَنْ تَرَكَ الْمَأْمُورَ مِنْ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَإِنْ كَانَتْ الْأُمُورُ الْبَاطِنَةُ مُبْتَدَأَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ وَأُصُولَهَا وَالْأُمُورُ الظَّاهِرَةُ كَمَالَهَا وَفُرُوعَهَا الَّتِي لَا تَتِمُّ إلَّا بِهَا»[49].

المطلب الثاني: أمراض الباطن وعلاجها بالقرآن الكريم

يمكن تقسيم الأمراض الإنسانية إلى قسمين:

1. أمراض أرواح.
2. وأمراض أبدان، وكلاهما أنواع.

وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين:

- **الأول مرض العقول:** بجمود النظر، وفساد الإدراك، وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك في الحق.
- **والثاني مرض النفوس:** بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات. أما بشأن الأعمال فهي تابعة لهما فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما. يقول ابن باديس: «والقرآن قد جاء داعياً إلى النظر، والتفكر، والاعتبار، والتدبير، مبيناً بما ساق من حجج رسله الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح، والسبيل الأسدَّ في الفهم والتفهيم... وجاء أيضاً مبيناً للأخلاق

[49]- الفتاوى الكبرى لابن تيمية 111/1.

الفاسدة، وذاكراً سوء أثرها وقبح مغبتها... فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق وبهما سلامة الأرواح وكمالها وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها»[50].

الخاتمة

أولاً- الاستنتاجات:

- للأعمال الباطنة مكانة هامة في الطرح القرآني، ويعد أولوية ظاهرة ومقصودة من تنزل القرآن الكريم.
- يوجد ترابط بين أعمال الباطن والظاهر، كما يوجد تأثير متبادل بينهما؛ ولذلك نجد من عادة الشارع أن يطلب من العبد تطهير باطنه وظاهره.
- القرآن الكريم هو المعين الأول والمسلك الأجدى والطريق الأمثل لتحقيق التزكية، وإصلاح الباطن.
- إن كثرة تناول الطرح القرآني للأعمال الباطنة المذكورة في بحثنا وغير المذكورة يسوقنا للإشارة إلى ما يمكن تسميته بالميزان القرآني في إعطاء الأمور والأشياء قيمتها وحجمها، ويمكن الوقوف على منزلة أعمال الباطن من خلال النظر في تركيز الطرح القرآني عليه وكثرة تناوله له.
- جرت عادة القرآن حينما يذكر أعمال الباطن المحمودة نادبا وداعيا إليها أن يوجه نداءه لعموم الناس وعموم المسلمين والمؤمنين؛ وذلك ليؤكد أن هذا من الواجبات العامة ومن فروض الأعيان المطالب بها كل أحد بخصوصه لا يستثنى من ذلك أحد.

تتأكد أهمية تناول هذا الموضوع في هذه المرحلة من عمر الزمن الذي فرضت فيه المادية بكثافتها اهتمامًا مبالغًا فيه بالظواهر والمحسوسات على حساب الحياة المعنوية والباطنة للإنسان.

التوصيات والمقترحات.

1. ينبغي للقائمين على الشأن التربوي والتعليمي في كل المراحل التعليمية استحضار أهمية أعمال الباطن ودورها في تنمية الشخصية المسلمة السوية، وذلك بوضع أهداف تربوية من وحي المنظور والرؤية القرآنية.
2. يتوجب على رواد العمل الإرشادي والدعوي إعادة بلورة معالم الخطاب التثقيفي والتربوي بما يسهم في بناء القيم التربوية الحميدة في الباطن على أساس من كتاب الله وتقريره لمبادئ علم فقه القلوب والبواطن وتزكيتها وإصلاحها.
3. ينبغي الاهتمام بالمقصود الأول من تنزل القرآن وهو هداية البواطن وإصلاحها وتقديمها على إصلاح الظواهر؛ فإنه إذا شفيت البواطن من عقائد السوء، ونزعات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال.
4. يقترح الباحث إجراء أبحاث تربوية لقياس فاعلية مقرر (القرآن الكريم وعلومه) لدى الطلاب في المراحل الدراسية (الأساسي والثانوي) وأثره في غرس القيم الباطنة المحمودة.

---

[50]- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير143.

قائمة المصادر والمراجع.

1. ابن باديس، عبد الحميد محمد (المتوفى: 1359هـ) (1416هـ- 1995م) **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، (ط1) دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.
2. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (المتوفى: 728هـ) (1419هـ- 1999م): **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**. طبعة (7). تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان.
3. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (المتوفى: 728هـ) (1399هـ): **أمراض القلوب وشفاؤها**. طبعة (2)، المطبعة السلفية- القاهرة، مصر.
4. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (المتوفى: 728هـ) (1399هـ) **التحفة العر اقية في الأعمال القلبية (ط2)** المطبعة السلفية – القاهرة،
5. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (المتوفى: 728هـ) (1416هـ/1995م) **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.
6. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر (المتوفى: 1393هـ) (1984م)، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر – تونس.
7. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (المتوفى: 751هـ) (1410 هـ) **تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)**، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف إبراهيم رمضان، (ط1) دار ومكتبة الهلال – بيروت.
8. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (المتوفى: 774هـ) (1420هـ- 1999م) **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (ط2) دار طيبة للنشر والتوزيع.
9. الأصفهاني، الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ) (1420 هـ - 1999م)، **تفسير الراغب**، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، (ط1) كلية الآداب - جامعة طنطا.
10. الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين ابن حيان (المتوفى: 745هـ) (1420هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.
11. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ) (1418 هـ) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، طبعة (1) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
12. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (المتوفى: 279هـ) (1998م) **سنن الترمذي**، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت.
13. التيمي، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة (المتوفى: 200هـ) (1979م)، **التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه**، قدمت له وحققته: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع،
14. حوى، سعيد، (1419هـ 1999م) **مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري**، (ط4)، دار السلام، القاهرة.
15. دروزة محمد عزت، (1383 هـ) **التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]**، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

16. السلمي، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ) (1416هـ/ 1996م) **تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)**، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، (ط1)دار ابن حزم – بيروت.
17. السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: 373هـ) **تفسير السمرقندي**، تحقيق وتعليق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت.
18. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (المتوفى: 1393هـ)، (1415 هـ- 1995): **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.
19. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد (المتوفى: 310هـ) (1420 هـ- 2000م) **جامع البيان في تأويل القرآن** تحقيق: أحمد محمد شاكر، (ط1) الناشر: مؤسسة الرسالة.
20. طنطاوي، محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (ط1) دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة.
21. قطب، سيد (1425هـ- 2004م) **في ظلال القرآن**، (ط 34) دار الشروق.
22. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود (المتوفى: 333هـ) (1426 هـ- 2005م) **تأويلات أهل السنة**، تحقيق: مجدي باسلوم، (ط 1)، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.
23. المحاربي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (المتوفى: 542هـ) (1422 هـ) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (ط1) دار الكتب العلمية – بيروت.
24. الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر (المتوفى: 974هـ) (1407هـ- 1987م) **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، (ط1) دار الفكر.

Second: list of sources and references; Translated into English.

1. Ibn Badis, Abd al-Hamid Muhammad (deceased: 1359 AH) (1416 AH - 1995 CE) in The Remembrance Councils of the Speech of the Wise, the Expert, commented on it and extracted its verses and hadiths, Ahmed Shams al-Din, (1 edition) Dar al-Kutub al-Ilmiya, Beirut - Lebanon.
2. Ibn Taymiyyah, Ahmad bin Abd al-Halim bin Abd al-Salam al-Harrani (deceased: 728 AH) (1419 AH - 1999 AD): The requirement of the straight path for violating the owners of Hell. ed. (7). Investigation: Nasser Abdul Karim Al-Aql, Dar Alam Al-Kutub, Beirut, Lebanon.
3. Ibn Taymiyyah, Ahmad bin Abd al-Halim bin Abd al-Salam al-Harrani (deceased: 728 AH) (1399 AH): Diseases of the hearts and their cure. Edition (2), Salafi press - Cairo, Egypt.
4. Ibn Taymiyyah, Ahmad bin Abd al-Halim bin Abd al-Salam al-Harrani (died: 728 AH) (1399 AH) The Iraqi masterpiece in heartfelt works (2nd edition) The Salafi Press - Cairo,
5. Ibn Taymiyyah, Ahmad bin Abd al-Halim bin Abd al-Salam al-Harrani (died: 728 AH) (1416 AH / 1995 AD) Total Fatwas, investigation: Abd al-Rahman bin Qasim, King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an, the Prophet's City, Saudi Arabia.

6. Ibn Ashour, Muhammad al-Taher bin Muhammad bin Muhammad al-Taher (deceased: 1393 AH) (1984 AD), Liberation and Enlightenment «Liberation of the Right Meaning and Enlightenment of the New Mind from the Interpretation of the Majid Book, the Tunisian Publishing House - Tunisia.
7. Ibn Qayyim al-Jawziyyah, Muhammad ibn Abi Bakr ibn Ayyub ibn Saad Shams al-Din (deceased: 751 AH) (1410 AH) Interpretation of the Noble Qur'an (Ibn al-Qayyim), investigation: Arabic and Islamic Studies and Research Office under the supervision of Ibrahim Ramadan, (1) Al-Hilal House and Library - Beirut .
8. Ibn Kathir, Ismail bin Omar (deceased: 774 AH) (1420 AH - 1999 AD) Interpretation of the Great Qur'an, investigation: Sami bin Muhammad Salama, (2nd edition) Dar Taibah for publication and distribution.
9. Al-Isfahani, Al-Hussein Bin Muhammad (deceased: 502 AH) (1420 AH - 1999 AD), Tafsir Al-Ragheb, investigation: Muhammad Abdel Aziz Bassiouni, (1 edition), Faculty of Arts - Tanta University.
10. Al-Andalusi, Muhammad bin Yusuf bin Ali bin Yusuf bin Hayyan, Atheer al-Din Ibn Hayyan (deceased: 745 AH) (1420 AH.), The Ocean in Interpretation, investigation: Sidqi Muhammad Jamil, Dar Al-Fikr - Beirut.
11. Al-Baydawi, Nasser al-Din Abu Saeed Abdullah bin Omar bin Muhammad al-Shirazi (deceased: 685 AH) (1418 AH.) Anwar al-Tanzel wa Asrar al-Ta'wil, edition (1), investigation: Muhammad Abd al-Rahman al-Maraashli, publisher: Dar Ihya al-Turath al-Arabi - Beirut.
12. Al-Tirmidhi, Muhammad bin Issa bin Surah (deceased: 279 AH) (1998 AD) Sunan Al-Tirmidhi, investigation: Bashar Awad Maarouf, Dar Al-Gharb Al-Islami - Beirut.
13. Al-Taymi, Yahya bin Salam bin Abi Tha'labah (died: 200 AH) (1979 AD), Al-Tasareef for the interpretation of the Qur'an, whose names are suspected and its meanings acted upon, presented to him and verified by: Hind Shalabi, the Tunisian Distribution Company,
14. Hawwa, Saeed, (1419 AH 1999 AD) Memoirs in the Houses of the Two Truthful and Divine Ones through the Texts and the Wisdom of Ibn Atta Allah Al-Iskandari, (4 edition), Dar Al-Salam, Cairo.
15. Darwaza Muhammad Ezzat, (1383 AH) The Modern Interpretation [arranged in the order of revelation], Dar Ihya Al-Kutub Al-Arabiya - Cairo.
16. Al-Salami, Izz al-Din Abd al-Aziz bin Abd al-Salam bin Abi al-Qasim bin al-Hasan al-Dimashqi, nicknamed the Sultan of Scholars (deceased: 660 AH) (1416 AH / 1996 AD) Interpretation of the Qur'an (which is an abbreviation for the interpretation of Mawardi), investigation: Abdullah bin Ibrahim Al-Wahbi, (1 edition) Dar Ibn Hazm - Beirut.
17. Al-Samarqandi, Nasr bin Muhammad bin Ahmed bin Ibrahim (deceased: 373 AH) Tafsir Al-Samarqandi, investigation and commentary: Ali Muhammad Moawad, Adel Ahmed Abdel-Mawgoud, and Zakaria Abdel-Majid Al-Nouti, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut.

18. Al-Shanqeeti, Muhammad Al-Amin bin Muhammad Al-Mukhtar (deceased: 1393 AH), (1415 AH - 1995): Lights of the statement in clarifying the Qur'an in the Qur'an, Dar Al-Fikr for printing, publishing and distribution, Beirut - Lebanon.
19. Al-Tabari, Muhammad bin Jarir bin Yazid (deceased: 310 AH) (1420 AH - 2000 AD), Collector of the statement in the interpretation of the Qur'an, investigation: Ahmed Muhammad Shaker, (1 edition), publisher: Al-Risala Foundation.
20. Tantawi, Mohamed Sayed, The Interpretation of the Intermediate Qur'an, (1st Edition), Dar Nahdat Misr for Printing, Publishing and Distribution, Faggala - Cairo.
21. Qutb, Sayyid (1425 AH - 2004 AD) in the shadows of the Qur'an, (34 edition), Dar Al-Shorouk.
22. Al-Maturidi, Muhammad bin Muhammad bin Mahmoud (deceased: 333 AH) (1426 AH - 2005 AD) Interpretations of the Sunnis, investigation: Majdi Basloum, (1 edition), Dar Al-Kutub Al-Alami - Beirut, Lebanon.
23. Al-Maharbi, Abd al-Haq bin Ghalib bin Abd al-Rahman (deceased: 542 AH) (1422 AH). The brief editor in the interpretation of the dear book, investigation: Abd al-Salam Abd al-Shafi Muhammad, (1st edition) Dar al-Kutub al-Ilmiya - Beirut.
24. Al-Haytami, Ahmed bin Muhammad bin Ali bin Hajar (deceased: 974 AH) (1407 AH - 1987 AD) Al-Zawajar about committing major sins, (1 edition) Dar Al-Fikr.